الخطاب الإسلامي وأحداث « ١١ أيلول »

تشكل أحداث الحادي عشر من أيلول تاريخاً فاصلاً أو بداية لتاريخ جديد. وذلك يعود إلى أن الحادثة مسَّت كبرياء أمريكا حين استهدفت منشآت عسكرية واقتصادية عملاقة من قبل جهة ليست في قوة أمريكا، لكن التعامل معها صعب والتحكم بها شديد الصعوبة. والحكومة الأمريكية بوصفها الضامن لأمن الأمريكيين شعرت بالتقصير في حمايتهم، ولهذا كان عليها أن تثبت بالبرهان تلو البرهان أن على الأمريكيين أن يثقوا بها وبقدرتها على القيام بالمهمة. والأمن بالنسبة للمواطن الأمريكي مهم وحساسيته تجاهه عالية جداً. وحين يشعر الأمريكيون بعدم الأمان فإن العديد من جوانب الحياة يتأثر بذلك الشعور، وتصير الأمور إلى اضطراب وانحسار.

الخطاب الإسلامي من جهته اضطرب تجاه رد الفعل المطلوب على تلك الأحداث. وأنا أشعر أنه لعدم امتلاكنا ما يكفي من الوضوح لرؤية ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين المسلمين وبين الدول الكبرى... أقول بسبب ذلك فقد وجد السواد الأعظم من المسلمين خاصتهم وعامتهم في أحداث «١١أيلول» فرصة للشماتة بأمريكا وفرصة للانتقام من الجرائم التي ارتكبتها بسبب تحالفها مع اليهود الغاصبين. لكن تلك الفرحة لم تدم طويلاً حيث بدأنا نكتشف شيئاً فشيئاً الثمن الذي علينا أن ندفعه نحن المسلمين للإقدام على ضرب أمريكا. إن الحرب على أفغانستان وإسقاط حكومة طالبان والضغط على العديد من الدول الإسلامية لتلاحق ما يشتبه أنهم أتباع أو مؤيدون للقاعدة والضغط على مؤسسات العمل الخيري ومحاولة تحجيمها بوصفها مصدراً محتملاً لتمويل ما دعي بـ «الإرهاب» بالإضافة إلى اضطهاد الأقليات الإسلامية التي تعيش في الغرب.. إن كل ذلك وأشياء من هذا القبيل جعل كثيراً من

سدنة الخطاب الإسلامي يعتقدون أن أحداث «١١أيلول» لم تهدم أمريكا، ولم تُضعف اقتصادها، ولم تردعها عن مواقفها المنحازة لليهود كما رجا الذين قاموا بتلك الأحداث، ولكنها أعطت المسوِّغ لممارسة التنكيل بالمسلمين والضغط على حكامهم ودعاتهم، بالإضافة إلى توفير ذريعة لبسط الهيمنة على العديد من الدول الإسلامية. وقد يكون الأهم من هذا كله تلك الصورة الذهنية السلبية التي أخذت في التشكل في معظم دول العالم. تلك الصورة التي تربط بين الإسلام وبين قتل الأبرياء وإتلاف الأموال وحل النزاعات بطريقة كسر العظام. إن هذه الصورة حين تترسخ في عقول الناس، توجب علينا أن نبذل الكثير من الجهد من أجل حماية أنفسنا من سوء الفهم. ونظراً لقلة ما بين أيدينا من وسائل إعلامية وضعفه، فإننا نخوض في الغالب معارك إعلامية خاسرة. ولعلي أسوق هنا بعض الملاحظات المتعلقة بهذا الموضوع.

١ ـ بعد أحداث « ١١أيلول» اشتدت الهجمة على الخطاب الإسلامي بكل ألوانه وأطيافه. وصار المخالفون للوجهة الإسلامية والمختلفون مع بعض تياراتها يركزون على أن العنف واستخدام القوة يشكل جزءاً من البنية العميقة للخطاب الإسلامي أو لبعض ألوانه ـ على الأقل ـ وتجاوز الأمر هذا إلى القول: إن الإسلام نفسه بما يشتمل عليه من نصوص وأحكام يحرض على العنف، ويزرع في نفوس أبنائه استسهال إراقة الدماء. وهؤلاء الذين يصمون الإسلام بهذه الوصمة يجهلون أو يتجاهلون النصوص الكثيرة التي تحذر المسلم من أن يسفك دماً حراماً. ولا أريد استعراض تلك النصوص لأنها باتت معروفة ومشهورة، لكن الذي يحتاج إلى شيء من الإضاءة والمراجعة هو القول: إن العنف والقتل والتخريب جزء أصيل من تكوين الخطاب الإسلامي. والحقيقة أن هذا القول لا يصمد أمام أي تحليل «أنثروبولوجي» للثقافة البشرية في مسيرتها الطويلة، كما لا يصمد أمام أي نظرة متعمقة لمسيرة الخطاب الإسلامي. إننا إذا

عدنا إلى خطاب الأفغاني وعبده ورضا بوصفهم من أكبر مؤسسي الخطاب الإسلامي في العصر الحديث فإننا نجد أن منهجية التغيير السلمي في الداخل وإقامة العلاقات الإيجابية مع العالم الخارجي هي الطابع العام لذلك الخطاب. وإن الذين ورثوا ذلك الخطاب وبنوا عليه استمروا في العمل وفق تلك المنهجية. وقد استمر هذا حتى منتصف القرن العشرين، وبدأت بعدها المشكلات والمصادمات. ولا بد في واقع الأمر من التفريق بين المستعدين للقيام بالأعمال العنيفة في الداخل والخارج وبين من يؤيدهم ويناصرهم، وكذلك التفريق بين هؤلاء وبين أولئك الذين يبدون شيئاً من الارتياح لذلك، لكنهم لا يمارسون العنف، ولا يقدمون له الدعم. إن الذين تورطوا في القيام بأعمال عنيفة والذين يعدون أنفسهم لذلك هم نسبة ضئيلة جداً من الأمة، وهي لا تصل في أي حال من الأحوال إلى واحد من ثلاثة آلاف من مجموع الأمة. أما الذين يبدون ارتياحهم، فإن نسبتهم تكون عالية حين يكون العنف ضد دولة مثل أمريكا. وتكون متدنية جداً حين يكون داخل بلد إسلامي. إن المسلمين يختلفون عقدياً مع معظم دول الأرض، ومع هذا فلم يقم أي مسلم بأي عملية قتل بدافع ديني ضد أبناء البلاد التي بيننا وبينهم أشد التباين الديني مثل اليابانيين والكوريين والصينيين... بل إن المسلمين لم يقوموا بأعمال انتقامية ضد كثير من الدول التي استعمرتهم في يوم من الأيام، وأذلتهم، ونهبت خيرات بلادهم مثل هولندا وإيطاليا وغيرها. هذا كله يعني أن الظلم الذي يشعر به المسلمون والقتل الذي يستحرّ في أبنائهم بأسلحة وأموال أمريكية هو الذي دفع إلى القيام بأحداث «١١أيلول» وليس الاختلاف العقدي أو كره الديموقراطية أو حسد الغربيين على ما هم فيه من رفاهية ورخاء وتقدم.

أما العنف في الساحة الداخلية، فإن علينا أن نعترف أنه سيظل هناك من يسيء فهم النصوص، إذ إن من المعروف أن معظم نصوص الكتاب والسنة ظنية؛ وإن كثيراً

من الشباب لا يعودون إلى أقوال الفقهاء، وإنما يحتجون بالآية والحديث على ما يريدون فعله. وهذا يعود أساساً إلى ضعف ثقافتهم الفقهية وضعف خبرتهم بمقاصد الشريعة وبسنن التغيير. وهذه الظاهرة موجودة لدى أتباع كل الديانات، وليس هناك أي سبيل للحيلولة دون وقوعها.

لماذا ـ يا ترى ـ يلجأ بعض الشباب إلى بعض النصوص كي يستخلصوا منها المستند للقيام بعمل عنيف أو تخريبي؟

الذي يبدو لي أن هذا اللجوء لا ينطلق ـ في الغالب ـ من التشبع بالفكر الإسلامي، ولا من التعرض لتربية تحريضية فعالة ومؤثرة، وإنما يحدث حين تتهدم الجسور، وتنقطع الصلات بين طالبي الإصلاح والساعيين إلى التغيير وبين الحكومات الوطنية. وهذا ما بدأ بالظهور في العديد من الدول الإسلامية منذ النصف الثاني من القرن العشرين. إن وهن روح التفاوض وضعف الالتحام بين القيادة والقاعدة، وانسداد آفاق الإصلاح والتقدم هو الذي يوحد الحركات الاحتجاجية السلمية منها والعنيفة. أما العقيدة فإنها تمنح الأساس لذلك، وتجعل للتضحية معنى إضافياً. العنف ينتج بسبب الافتقار إلى رؤية سياسية ناضجة. وسبب ذلك الافتقار هو ضعف الممارسة السياسية.

وينبغي إلى جانب هذا أن نقول أيضاً: إن من الممكن أن تختلط الأمور على بعض الناس، فيظنون أن ما يمكن استخدامه من أجل دفع العدوان الخارجي أو في الصراعات الدولية ـ يجوز استخدامه في داخل البلد المسلم ومن أجل إحداث تغييرات سياسية واجتماعية معينة. ويساعد على هذا الخلط الاحتقان الاجتماعي، ووجود توجيه فكري وتربوي يقوم على أساس تكفير المجتمع أو غلبة الفساد عليه على نحو لا ينفع معه إلا الاستئصال والبتر. وأعتقد أن على سدنة الخطاب الإسلامي أن يعمقوا الرؤية

أكثر فأكثر في هذه القضية كي نجنب الأمة ويلات التطاحن الأهلي والتعانف الداخلي.

٢ ـ ضخامة أحداث « ١١ أيلول » أدت إلى الكثير من الانقسام في الرأي العام في داخل العالم الإسلامي وخارجه. وليس في هذا شيء غير مفهوم، حيث إن اختلاف الزوايا التي ينظر منها الناس للأشياء، بالإضافة إلى نوعية التفسير الذي يعتمدونه في فهم تلك الأشياء ـ من الأمور التي تثير دائماً ردود أفعال مختلفة ومتباينة. على مستوى الولايات المتحدة زاد عدد المتطلعين والمتشوقين لمعرفة الإسلام بوصفه خزان المعتقدات لمن حُمِّلوا مسؤولية الحدث. ويفيد بعض التقديرات أن نسبة الذين يدخلون في الإسلام من الأمريكيين قد زادت نحواً من ٥٠٪ ليبلغ متوسط عددهم قرابة (١٥٠٠) شخص أسبوعياً. وهذا هو الجزء المشرق من الصورة. لكن في المقابل لا يكاد يمر أسبوع حتى يصدر في الولايات المتحدة كتابان أو ثلاثة تتحدث بطريقة ما عن العرب والإسلام والمسلمين. ومعظم تلك الكتب يتحدث عنا وعن قضايانا وعن ثقافتنا على نحو سلبي، ويساعد بالتالي على توليد المشاعر العدائية، ويترك الانطباعات غير الحسنة لدى القراء. ولا تبتعد الصورة كثيراً عن هذا في كندا وأوربا ومناطق أخرى عديدة من العالم. ولهذا يمكن القول: إن سمعة الإسلام والمسلمين قد تضررت على المستوى العالمي بسبب تلك الأحداث، وصرنا فعلاً في دائرة الاهتمام والاستهداف. أما على الصعيد الإسلامي فإن رد فعل الولايات المتحدة على الأحداث والذي يتمثل في الكثير من التجاوزات السياسية والقانونية والأخلاقية، قد تمت إضافته من قبل الشريحة الأوسع من المسلمين إلى مواقفها المجحفة في مناصرة الصهيونية ضد العرب عامة والفلسطينيين، خاصة لينشأ اعتقاد راسخ لدى الرأي العام الإسلامي بالقطيعة الحضارية بين المسلمين والغرب. وتشكل انطباع قوي بصحة طرح الخطاب الإسلامي المغالي في نفي وجود أي معتقدات أو مبادئ أو مفاهيم أو مصالح تشكل أرضية

مشتركة للحوار بيننا وبين الغربيين. إن السواد الأعظم من المسلمين يعتقدون اليوم أن الهجمة الشرسة التي تقودها الولايات المتحدة ضد الدول والشعوب الإسلامية هي إحدى مظاهر صحوة دينية صليبية تتجذر لدى الشعب الأمريكي. كما أن لدى الجماهير الإسلامية اعتقاداً قوياً بأن الحرب علينا هي حرب دينية حضارية أكثر من أن تكون حرباً من أجل النفط أو من أجل العقود الضخمة أو من أجل فتح أسواق للمنتجات الأمريكية والأوربية. ولهذا فإن نسبة العداء لأمريكا قد تصاعدت بقوة لدى معظم الشعوب الإسلامية. وقد دلت بعض استطلاعات الرأي الحديثة في تركيا ـ مثلاً ـ أن أكثر من ٨٠٪ من الأتراك يضمرون الكراهية لأمريكا بسبب مواقفها ضد المسلمين. وصار على الليبراليين والمؤمنين بالانفتاح وكل أولئك المقتنعين بنمط العيش في الغرب أن يظهروا قدراً من الولاء الوطني، وأن يتركوا مسافة واضحة بين طروحاتهم وطروحات أمريكا وإلا فإنهم سوف ينبذون من قبل عموم المسلمين. وقد فعل أكثرهم ذلك، وكان في هذا ما لا يخفى من الإيجابية.

في النخب العربية والإسلامية من رأي في أحداث « ١١ أيلول » فرصة لتوجيه اللوم إلى الذات وانتقاد الذين صنعوا الحدث بوصفهم المتسببين الأساسيين فيما جرى، ويجري للإسلام والمسلمين على يد الولايات المتحدة خاصة والغرب عامة. وهذا الفريق لا ينكر عدوانية الغرب ورد فعله المبالغ فيه على ما حدث، لكنه يعتقد أن على الذين جرحوا الأسد أن يتحملوا ردَّ فعله مهما كان، ولا سيما أن أمريكا لا تجد اليوم من يمكن أن يقف في طريقها لا داخل العالم الإسلامي ولا خارجه. وهذا اللون من الخطاب على وجاهته لا يُقنع معظم المسلمين ولا سيما أولئك الذين تغلب عليهم العاطفة وأولئك الذين يعتقدون أن الغرب من خلال استعماره لدول كثيرة في العالم الإسلامي ومن خلال مناصرته لليهود في فلسطين، يشكل السبب الجوهري لتخلف

المسلمين في العصر الحديث. ولهذا فإن الأحداث لم تكن عدواناً على أمريكا بمقدار كونها انتقاماً ممن أساء وما زال يسيء للأمة.

لدينا فئة محدودة من صانعي الخطاب الإسلامي تعتقد أن التنصل من أحداث «١١ أيلول » والادعاء بأن أشخاصاً أو جهات غير إسلامية مسؤولة عنها، يشكل ضعفاً في مصداقيتنا نحو دعوانا بعدوان الولايات المتحدة على العالم الإسلامي. وتدعو هذه الفئة إلى موقف متعدد الأبعاد، يقوم على أن تلك الأحداث تشكل شاهداً على ما يمكن أن يفعله المظلوم مهما كان ضعفه بظالمه مهما كانت قوته، فما حل بأمريكا هو جزاء لما اقترفته أيدي حكامها في العالم. وتلك الأحداث من وجه آخر كانت خطأً فادحاً. ومع ذلك فليس على الأمة أن تعتذر عن خطأ ارتكبه أفراد منها، كما أنه لا يجوز تحميلها تبعات ذلك، كما أن الغرب لم يتحمل تبعات الفظائع التي ارتكبها صرب البوسنة ضد المسلمين.

وهناك إلى جانب هذا وذاك توجهات ومواقف فرعية حيال تلك الأحداث، لا نرى حاجة إلى سوقها.

٣ ـ أعتقد أن من الآثار الإيجابية لأحداث « ١١ أيلول » أنها عززت الخطاب الإسلامي المبني على الاقتناع بالعمل الإصلاحي السلمي، لا شك أن هذا التوجه قديم، وهو التوجه الأكثر أتباعاً في الساحة الإسلامية، لكن ما أفرزته تلك الأحداث من تغيير الحكم في أفغانستان والعراق ومن تضييق على المسلمين في الغرب.. إلى جانب عدم سقوط أمريكا وخراب اقتصادها كما كان يقال بعيد وقوع الأحداث، كل هذا جعل المؤمنين بالتغيير السلمي المتدرج يزدادون يوماً بعد يوم، كما جعل إيمانهم بهذا المنهج يزداد رسوخاً وصلابة. ولا يعكر على هذا استعداد شريحة كبيرة من المسلمين لإظهار الشماتة بأمريكا كلما نزلت بها نازلة أو فقدت بعض جنودها هنا وهناك، لأن

معظم الناس يشعرون بأن أمريكا ليست مخلصة لمبادئها، وتتحرك بدافع من رؤى المحافظين الجدد، أو بتشجيع من شركات النفط والسلاح والإعمار. وهي في كل الأحوال لا تكف عن الاعتداء على غيرها. وهناك اتجاه واسع إلى التفريق بين استخدام العنف في مواجهة عدو محتل، كما هو الشأن في فلسطين ـ مثلاً ـ وبين استخدامه داخل المجتمعات الإسلامية.

وأشعر أن هذه القضية كانت غائمة في أذهان بعض طلاب العلم من الدرجة الثالثة، ولذلك أصدروا الفتاوى التي سهَّلت للشباب القيام بأعمال عنيفة زهقت فيها الأرواح البريئة وأتلفت بسببها الأموال المحترمة؛ ولكن الوضع الآن تحسَّن بعد الوقفة الصُلبة لأهل البصيرة من المفكرين والعلماء والدعاة حيال تلك الأعمال. وهذا يصب في مصلحة الدعوة والأمة معاً.

٤ ـ كانت حركات التحرر الوطني تستخدم العنف ضد المحتل والظالم على أراضيها وداخل أوطانها. وكان هذا مفهوماً بوضوح، حيث إنه يفسِّر على أنه دفع مشروع عن النفس، لكن في أحداث « ١١ أيلول » اختلف الأمر حيث هوجمت أمريكا في عقر دارها عقاباً على ذنب غامض أو غير محدد بالضبط. وهذا أفقد كل الشعوب الضعيفة المبدأ الذي كانت تتحصن به من طغيان الدول الكبرى، وهو مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية، ومبدأ حق تقرير المصير. إن العولمة بآلياتها الرهيبة وعبر تقنيات الاتصال المتقدم، روجت للمقولات والمفاهيم التي تجعل الناس يعتقدون بزوال الحواجز. بين ما كان يسمى « الداخل » وما كان يسمى « الخارج » ، وذلك عبر مصطلحات « المجتمع الدولى » و « القرية الكونية » ومقولة « السلم العالمي » . وقد قدمت أحداث « ١١ أيلول » الفرصة الذهبية للولايات المتحدة الأمريكية كي توظف هذه المقولات والمصطلحات في تسهيل حركتها التسلطية والقمعية في العالم كله، ولا

سيما العالم الإسلامي. لماذا لا تغزو أمريكا أعداءها في ديارهم، كما غزوها في ديارها؟ ولماذا لا تخرق الحدود التي تمنعها من تحقيق مصالحها ما دام أعداؤها هم الذين قاموا بخرق تلك الحدود؟.

وقد لاحظنا كيف اتخذ « الكونجرس » الأمريكي قبل أيام قراراً بتوجيه الحكومة إلى نشر الديموقراطية في العالم وتحويل السفارات الأمريكية في العالم إلى قلاع للحرية، أي ملاذات آمنة للمنشقين على حكوماتهم والمتناغمين مع توجهات الشرطي الجديد للعالم. وأعتقد أن انمحاء الفرق بين الداخل والخارج والذي سعت إليه الولايات المتحدة يعدّ من أسوأ النتائج التي نجمت عن أحداث « ١١ أيلول » .

٥ ـ إذا صح أن الأمة كلها لحقها ضرر من أحداث « ١١ أيلول » فإن من الصحيح أيضاً أن الخطاب الإسلامي بكل ألوانه ومستوياته، يُعدُّ المتضرر الأكبر؛ حيث إن الناظر إلى الشيء من بعيد، تصعب عليه رؤية تفاصيله وتباييناته الفرعية، وهكذا فإنه يصعب على الأمريكيين والأوربيين وغيرهم فرز أرباب الخطاب الإسلامي المعتدل من أرباب الخطاب الإسلامي الغالي أو المؤمن باستخدام القوة ضد الخصوم والمناوئين. وهناك اعتقاد شائع لدى العديد من الجهات بأن من السهل أن يتحول المعتدل إلى غالٍ أو متطرف، حيث إن قيادات الجماعات المعتدلة لا تسيطر على أتباعها على نحو كامل. وهذا أوجد توجهاً للضغط على الجميع، وجعل التوجس من كل المتدينين شيئاً ملموساً. إن الغربيين والليبراليين وكل صانعي الخطابات غير الإسلامية ينظرون إلى «الملتزمين » على أنهم يفتقرون إلى المرونة والواقعية والمعاصرة، كما أنهم يتجاوزون حدود « المعقول » في تصوراتهم لهيمنة الدين على الحياة العامة. وقد قدمت أحداث «١١ أيلول » الذريعة لتأصيل هذه الرؤية وتدعيمها.

ومن وجه آخر فإن معظم المخالفين للتوجه الإسلامي، لا يستطيعون مهاجمة

الجماعات الإسلامية الغالية دون مهاجمة بعض الأحكام الإسلامية، فالفصل بين الإسلام النقي الخالص والبعيد عن التأويلات الغالية وبين آراء الجماعات الإسلامية المتطرفة صعب للغاية، والحدود الفاصلة كثيراً ما تكون غامضة أو غير حاسمة. هذا كله بالإضافة إلى أمور أخرى جعل التيارات الإسلامية المختلفة في الوضع الحرج والزاوية الضيقة. والله المستعان.

٦ ـ من نتائج أحداث « ١١ أيلول » تنامي الشعور بالخطر لدى صانعي خطابين أساسيين هما الخطاب القومي والخطاب الإسلامي، أو لنقل عند صانعي بعض ألوان هذين الخطابين. وهذا أوجد نوعاً من الرغبة المشتركة في تجاوز بعض عقابيل الماضي في سبيل مواجهة العدو الخارجي المشترك. وعلينا هنا أن نعترف بأن الخطاب الإسلامي لا يملك المهارة الكافية لإظهار ما لديه من انتماء وطني وقومي. وهذا يعود إلى الحرص على صفاء المعتقد ونقاء التوجه، حيث تستولي على كثيرين منا المخاوف من أن يصبح الانتماء إلى الأوطان والقوميات على حساب الانتماء إلى العقيدة والأمة. أضف إلى هذا أن بعض الإسلاميين يمد تطلعاته الوحدوية وأنشطته العملية خارج حدود الوطن والإقليم مع إهمال ظاهر للتنسيق في بعض المواقف مع أبناء بلده ممن يخالفونه في بعض ما يذهب إليه. وهذا يترك انطباعات سلبية لدى الآخرين. إن الانتماء إلى أمة الإسلام يشكل الدائرة الأوسع. وهي دائرة مفتوحة على دائرة أضيق منها، وهي الدائرة القومية. وهذه الدائرة أيضاً مفتوحة على دائرة داخلها، وهي الدائرة الوطنية. وإن المسلم بأخلاقه وسلوكه ونفعه لبلده يقدم خدمة وطنية وقومية وإسلامية في آن واحد. وإن أي قطر إسلامي، يشكل لبنة في الوطن الإسلامي الكبير. وإن من الصعب أن يعز الإسلام في أوطان ذليلة أو خربة أو متخلفة، مع أن علينا دائماً أن نعمل على تمتين الروابط وإقامة الهياكل الاتحادية والتعاونية على مستوى العالم الإسلامي من المحيط إلى المحيط.

أما التيار القومي فإن بعض أطيافه يتبنى طروحات علمانية. وهو بكل أطيافه تقريباً ينظر إلى الرابطة الإسلامية على أنها منافسة للرابطة القومية. وهذا نوع من قصر النظر. وقد أثبت المنتمون إلى الفكرة الإسلامية في الكثير من البلدان ـ فلسطين نموذجاً ـ أن حرصهم على عزة أوطانهم وخدمة مواطنيهم هو الأشد وضوحاً وقوة إذا ما قورن بما أبداه المنافسون من أصحاب الانتماءات الأخرى. كما أظهروا حساسية عالية نحو تدخل الأجنبي، وساهموا في مقاومته على نحو يثير الإعجاب. ونحن اليوم نرجو أن يتخلص صانعو الخطاب القومي من بعض الرواسب والأحكام القديمة، ويحاولوا مراجعة طروحاتهم في ضوء التجربة والممارسة، وليس في ضوء المقولات النظرية. وإن من غير الممكن إنشاء جدار قوي في وجه الغزاة الطامعين من غير التسليم بثوابت الإسلام وقطعياته من قبل كل الفرقاء. تحت مظلة الإسلام العامة وبعيداً عن الحرج والضيق والتوقف عند الجزئيات يمكن لكل التيارات أن تعمل من أجل منعة البلاد وعزها وازدهارها. ويمكن لشعورنا بالخطر القادم أن يشكل بداية لتفاهمات داخلية ممتازة في هدي الشريعة الغراء ومن أجل مصلحة الأمة.

٧ ـ بالنسبة إلى ظلال أحداث «١١أيلول» وملابساتها على الصعيد الأمريكي، يمكننا أن نلاحظ الكثير من الأمور المهمة، لكن سأقتصر هنا على اثنين منها:

أ ـ لم يعد الإعلام الأمريكي في عهد «المحافظين الجدد» إعلاماً حراً بمعنى الكلمة، وإنما صار إعلاماً يعكس إلى حد بعيد رغبات الدولة ورؤاها فيما يخص المسائل الخارجية أكثر من أن يكون إعلاماً تعددياً، يعرض وجهات نظر متباينة. والواضح أن الإعلام الأمريكي في تغطيته لأحداث « ١١ أيلول » قد قلد الإعلام الصهيوني في تصويره للصراع مع الفلسطينيين. إن الإعلام الصهيوني يعزل الظواهر العسكرية عن جذورها وأسبابها الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية في سبيل تشويه صورة الخصم؛

وهكذا فالمقاومة الفلسطينية كما يصورونها للعالم ليست مقاومة للاحتلال والاستيطان السرطاني في الضفة والقطاع، وإنما هي تعبير عن رغبة مجنونة لدى الفلسطينيين في «الانتحار» وقتل الأبرياء من الإسرائيليين. وهكذا يصور الكثير من وسائل الإعلام الأمريكية المسؤولين عن هجمات «١١أيلول» وغيرها مما يوصف بالهجمات الإرهابية بأنهم أشخاص يكرهون الديموقراطية وحقوق الإنسان وكل ما يحبه الأمريكيون. إن دوافعهم عبارة عن مزيج من التخلف والجهل والحقد والحسد، وليس عدوان أمريكا على المسلمين ومساندتها العمياء للمعتدين في فلسطين. ولهذا فإن أمريكا تخوض الآن حرباً ضد الشر ومن أجل الإنسانية. وإن أمريكا وحضارة العالم باتا اليوم في خطر، وإنه يجب على أمريكا التضحية بأولوياتها في ميزانيتها المحلية إلى جانب التضحية بأعداد كبيرة من الأمريكان على نحو ماقت به حين حاربت توأم الشر: استالين وهتلر.

هذه هي الرسالة خرجت من البيت البيض بعد أحداث « ١١ أيلول » مباشرة، وتكثفت خلال التحضير للحرب على العراق. ولهذا فإن الخطاب الإسلامي ومعه الإعلام العربي والإسلامي، يواجه تحدياً كبيراً، يتمثل في إفهام الشعب الأمريكي «الجاهل بما وراء حدوده » بحقيقة الأسباب التي تجعل العنف يتجه صوب أمريكا دون غيرها. وينبغي أن يكون للمسلمين في أمريكا وأوربا دور رئيس في هذا الشأن.

ب ـ إذا قارنا بين أمريكا وأوربا في مسألة التدين والمشاعر الدينية، فإن أمريكا تعد بلداً متديناً. وربما كان ذلك لأنها لم تشهد الصراع العنيف الذي قام بين العلم والكنيسة، كما أنها لم تعانِ ما عاناه الأوربيون من تحالفات الكنيسة مع النافذين والأقوياء ضد المستضعفين والفقراء. ومن هنا فإن كل السياسات الأمريكية تعتمد على الدين في الأزمات والطوارئ الشديدة. هناك قناعة عميقة وغامضة لدى الأمريكين بأن لأمريكا مهمة ربانية بأن تكون نموذجاً لكل العالم. وحين يسود اعتقاد بوجود

ديانة أو جهة تمثل تهديداً لهذا النموذج فإن على الأمريكين الوطنيين شن حرب ضده. ومن هنا فإن قول الرئيس « بوش » بعد أحداث « ١١ أيلول » بأنه سيشن حرباً صليبية ضد من يقف وراء تلك الأحداث يحتمل أن يكون المراد منه شن حرب جذرية صاعقة، كما يحتمل أن يكون المراد منه شن حرب دينية تستلهم رمزية الصليب. وقد يكون من مرجحات التفسير الثاني أن القيادة الحالية لأمريكا على مستوى السلطتين التشريعية والتنفيذية تستبطن رؤى دينية في خلاص العالم أكثر من أي وقت مضى. وهذا يشكل في الحقيقة نوعاً من الانقلاب على أمريكا «العلمانية» . وسوف يدهش فعلاً الكثير من الأمريكيين إذا تناهى إلى علمهم أن الكثير من الناس لا يرون في أمريكا نموذجاً للإحسان والعدالة ولا للتمسك بالمبادئ، وإنما يرون فيها دولة «مارقة» . ومواقف الولايات المتحدة في عدم الموافقة على معاقبة جنودها خارج حدودها أمام المحاكم الدولية، وموقفها من المعتقلين المسلمين في «غوانتينامو» وتعذيبها لهم في العراق وغيرها بالإضافة إلى موقفها غير المشرِّف من الاتفاقات الدولية حول حماية البيئة.. إن كل تلك المواقف تدل بوضوح على أن أمريكا صارت مشغولة بنفسها وبمصالح الشركات النافذة فيها أكثر من انشغالها بمستقبل العالم وأمنه وازدهاره. بل إن هناك شعوراً متزايداً بأن أمريكا تشكل عبئاً على العالم أكثر من أن تشكل نموذجاً له.

٨ ـ إن أحداث «١١أيلول» وما تلاها من أحداث مدريد ولندن قد أججت الصراع بيننا وبين الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة. ومن المألوف في مثل هذه الحالة أن يحدث الكثير من التطفيف في المكاييل وإلصاق التهم وإبراز المعائب. ونحن مطالبون بالقيام لله ـ تعالى ـ بالقسط والعدل في حالة الوفاق وحالة الخلاف وحالة الرضا وحالة الغضب على نحو ما نعقله من قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ

لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ [1] وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [2] .

إذا كان الوعي بالذات فرعاً عن الوعي بالآخر فإن الذي يشوه صورة عدوه من خلال جحد فضائله ووصمه بما ليس فيه، فإنه يسيء إلى نفسه ويصبح كمن ينظر في مرآة محدبة أو مقعرة. وكلما رأينا الآخرين على ما هم عليه في واقع الأمر فإن ذلك يكون أعون لنا على رؤية أنفسنا على النحو الصحيح.

وأظن أن علينا على صعيد العلاقة مع الغرب أن نقوم بالكثير من الأمور، والتي من أهمها:

أ ـ لا يليق بأمة الإسلام بوصفها حاملة لرسالة التوحيد أن تتطلع إلى التماهي مع أي أمة أخرى، فنحن الورثة الحقيقيون لإرث الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ونحن المؤتمنون عليه. ولهذا فإن كل اقتباس عن أي جهة وفي أي مجال يجب أن يخدم مصالحنا، ولايتنافر مع ثوابتنا. لنا رؤيتنا المنهجية للحياة، وعندنا احتياج للاستفادة مما لدى الآخرين في مجال التنظيم واكتشاف الطبيعة وفي مجال الإدارة والتقنية وأمور عديدة؛ لكن ذلك يجب أن يؤقلم ويكيف كي لا يتحول إلى عامل تخريب للعقول والنفوس المسلمة.

ب ـ ليس الغرب شيئاً متجانساً، إنه ليس مجموعات من الأشرار أو مجموعات من الأخيار. إن فيهم العنصريين الماديين الحريصين على زيادة مكاسبهم مهما كان الثمن الأخلاقي الذي سيدفعونه. وفيهم مجموعات، هي أقرب إلى الطيبة والبراءة، وتحمل عقولاً منفتحة، وتقدر الاستقامة السلوكية. والسواد الأعظم من الغربيين ـ ولا سيما

(1) سورة المائدة : (٨).

(2) سورة المطففين: (١ـ ٣).

الأمريكان ـ لا يعرفون شيئاً ذا قيمة لا عن الإسلام ولا عن المسلمين، ولديهم قابلية ممتازة لسماع الحق وقبوله. وكثير منهم عبارة عن ضحية للآلة الإعلامية الضخمة والمدارة من أصحاب النفوذ السياسي والمالي. ولا بد من القول: إن المشكلات الأساسية بين أمتنا وبين الغرب ليست مشكلات مع الشعوب الغربية بمقدار ما هي مشكلات مع حكوماتها. وإن الحكومات الغربية لا تمثل فعلاً شعوبها على صعيد العلاقة مع المسلمين. ومن المؤسف أن كثيراً من الذين يصوغون الخطاب الإسلامي لا يولون هذه التفاصيل الاهتمام الكافي، ولذا فإنهم يقعون في الكثير من التعميم، ومن خلال الوقوع في التعميم يقعون في الظلم، ويبتعدون عن الرؤية الموضوعية!.

ج ـ في خطابنا الإسلامي تجاه الغرب نحتاج إلى الاعتدال والإنصاف والوسطية، ونحتاج أيضاً إلى إظهار سماحة الإسلام ويسره، كما نحتاج إلى القيام بتفكيك الخطاب الأمريكي وتحليله وبيان عدوانيته ومجافاته للحقائق البينة، وذلك بغية تكوين رأي إسلامي موحد تجاهه. إن من المهم أن نفرق بين ما نحن في حاجة إليه من علوم الغرب وخبراته ونظمه وبين التبعية السياسية والإعلامية والاقتصادية التي تقوِّض بنيان الأمة، وتطمس معالم شخصيتها.

د ـ من مسؤولية الخطاب الإسلامي تهميش الغلو في فهم الرؤية الإسلامية للعلاقات الدولية. هذا الغلو هو الذي يؤسس لمجابهة غير متكافئة مع الغرب، كما يعطي الذريعة له في ممارسة المزيد من الضغوط علينا، وقبل ذلك تشويه مبادئنا وسمعة الإسلام العالمية. إن الخطاب الإسلامي وحده هو المؤهل للقيام بهذه المهمة الكبيرة؛ لأن الانحراف الفكري في فهم الإسلام، لا يُصحح إلا من خلال الفهم العميق لروح الشريعة وأحكامها ومقاصدها. وهذا ما لا يملكه أي تيار أو خطاب آخر.

إننا أصحاب رسالة نريد نشرها في العالمين، وإن التوتر الدولي لا يخدم هذه

الإرادة. كما أن أمريكا تريد أن تستدرجنا إلى الصراع في ساحات تمتلك فيها الغلبة والتأثير كي تحقق الفوز. وعلينا أن نكون على وعي بهذا. لدينا منهج، ولدينا رؤية نيرة للحاضر والمستقبل، وبقاء الصراع في الدائرة الثقافية والمنهجية، يساعدنا على توضيح تلك الرؤية، والدفاع عنها أيضاً. وسنعود إلى شيء من الحديث عن الغرب عبر سياقات عديدة بإذن الله؛ تعالى.

obeikandl.com